الفصل الثالث

الثقافات والمعايير الاجتماعية وعلاقتها بذيوع الأفكار المستحدثة

« إذا عرفنا ماهية الثقافة السائدة فى مجتمع ما ، بما فى ذلك قيمها الخاصة بها ونوازعها ، فاننا نستطيع أن نتنبأ بشىء كثير من الثقة ، بما إذا كان العدد الأكبر من أفراد هذا المجتمع يرحبون بفكرة مستحدثة أم يقاومونها » .

« رالف لينتون عام ١٩٥٢ »

والهدف من هذا الفصل إنما هو العمل على إبراز أهمية القيم الثقافية فى ذيوع الأفكار الجديدة ، وبناء الملامح الأساسية فى نمطين مثاليين من أنماط المعايير الاجتماعية وهما النمط التقليدى القديم والنمط العصرى الحديث ، وتوضيح أثر المعايير السائدة فى تنظيم اجتماعى على قابلية أفراده لتبنى الأفكار المستحدثة .

أهمية الثقافة

فى مجال انتشار الأفكار المستحدثة

والمعيار يحدد معناه باعتباره النمط الشائع للسلوك العام الذى يتميز به أفراد تنظيم اجتماعى معين . والمعايير من شأنها أن تؤثر على انتشار الآراء الجديدة إذ أن المعايير اللاصقة بتنظيم اجتماعى معين يمكن أن تكون حائلاً يحول دون إحداث التغيير كما أوضحنا فى المثال الذى أوردناه فى صدر هذا الكتاب وتحدثنا فيه عن غلى مياه الشرب فى إحدى قرى جمهورية « بيرو » . والمقاومة للمستحدث من الأفكار كثيراً ما نجدها فى العادات الخاصة بالطعام والشراب . ففى بلاد « كالهند » مثلاً تجوس الأبقار المقدسة خلال الحقول وترعى كيفما تريد فى حين أن هناك ملايين من الناس يعانون من

المجاعة . وفى البلاد الإسلامية لا يأكل الناس لحم الخنزير . وفى معظم البلاد الآسيوية ، وكذلك فى الولايات المتحدة ، يؤكل الأرز بعد ضربه وتبييضه وذلك بالرغم من أن الأرز الخام أكثر فائدة لجسم الإنسان . والعادات المتعلقة بالطعام تكون على الأغلب ذات جذور عميقة فى تقاليد المجتمع وعلى ذلك فإنها تتأثر تأثراً مباشراً بالقيم الثقافية .

لقد صور « أبوداكا » أهمية المعايير المتعلقة بتنظيم اجتماعى معين فى إحداث التوقف الذى يلحق بانتشار فكرة جديدة فذكر أن بذور الذرة الهجين أدخلها ذات مرة أحد المرشدين الزراعيين إلى إحدى القرى المكسيكية مع اتخاذ كل ما يمكن من عناية حتى تنجح الفكرة وتنتشر بين سكان هذه القرية وكانوا من أصل أسبانى . ومن قبيل العناية تم اختيار التربة المحلية والتأكد من قابليتها لاحتضان البذرة الجديدة . فى العام الأول لهذه التجربة اكتشف المرشد الزراعى أن البذرة الجديدة أعطت ثلاثة أمثال المحصول العادى الذى كان متوقعاً من البذور القديمة . والذى حدث أن نصف الفلاحين فى القرية اعتنقوا فكرة الذرة الهجين وزرعوها فى العام التالى . ولكن بعد مرور عامين عاد جميع الفلاحين تقريباً إلى عادتهم القديمة فى زراعة بذورهم التى اعتادوا على زراعتها من قديم .

لِمَ توقف فلاحو هذه القرية عن تطبيق الفكرة الجديدة ؟ السبب هو أن زوجاتهم لم يحببن الذرة الهجين إذ أن الذرة كانت فى العادة تطحن لعمل الخبز المكسيكى وهو على شكل أرغفة مستوية السطح ولا يمكن لأولئك الفلاحين أن يستغنوا عنها فى وجباتهم اليومية . أما الذرة الهجين فكان لها طعم غريب المذاق بالنسبة إليهم ، كما أن عجينتها لم تكن تصلح لعمل هذه الأرغفة ، وعلى ذلك يمكن القول بأن معايير التنظيم الاجتماعى فى تلك القرية كانت فى جانب الأنواع القديمة من بذور الذرة ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبذور الذرة الهجين . ولو كان المرشدون الزراعيون قد أدخلوا

فى اعتبارهم المعايير الاجتماعية المحلية بالإضافة إلى اهتمامهم بالظروف المحلية للتربة ، فمن الجائز أنهم كانوا قد توصلوا إلى إنتاج أرغفة أفضل بالإضافة إلى ماحققوه من محصول أكبر .

وثمة مثل آخر من الأمثلة الدالة على أهمية القيم الثقافية فى انتشار الأفكار الجديدة وفى هذه المرة يأتى المثال من « فيتنام » . فعند مانقص محصول الأرز فى عام من الأعوام القليلة الماضية ، أدخل مندوبو المعونة الفنية الأمريكية فى تلك البلاد سمك «التيلابيا» . ومن خصائص هذا النوع من الأسماك التكاثر السريع كالأرانب، وفى هذه الحال يمكن توفير البروتين اللازم للناس ، وذلك بالإضافة إلى المذاق اللذيذ الذى تميزت به هذه الأسماك . وسار كل شىء على مايرام وامتلأت البحيرات والبرك الواقعة وسط المزارع بكميات هائلة من الأسماك إلى أن حدث أن أشاع بعض الناس أن السمك سام . وانتشرت الإشاعة وساعد على انتشارها أن كل من أكل من هذه الاسماك ثم مرض بعد ذلك عزى مرضه إلى هذا النوع من السمك . ولقد ترتب على ذلك ظهور قدر كبير من المعارضة للفكرة ، وكان لابد أن تمضى فترة طويلة تقدر بسنوات ثلاث قبل أن يصبح سمك « التيلابيا » جزءاً أساسياً فى الطعام المحلى .

يوضح هذا المثال أن انتشار الأفكار الجديدة ليس مجرد أمر ينطوى على فوائد اقتصادية وإن كانت العوامل الاقتصادية قد تكون هامة فى كثير من الحالات . والاعتبارات الاقتصادية قد تكون على الأغلب ذات أهمية فى المجتمعات الحديثة تفوق الأهمية التى لها فى المجتمعات التقليدية القديمة . وواحدة من أولى الدراسات التى أجريت وفقاً لمنهج علم الاجتماع قد أكدت هذه النقطة . ولقد قارن « بدرسون » عام ١٩٥١ بين معدل السرعة الذى يتم بمقتضاه تبنى الأفكار الجديدة فى مجال الزراعة فى محيط الزراع المنحدرين من أصول دانيماركية وبولونية فى ولاية « وسكونسن » وبين نفس المعدل

فى أوساط أخرى، ومن هذه المقارنة اتضحت له حقائق هامة منها أن المزارعين البولونيين متأثرون بمنبتهم الأصلى حيث تخدم الزراعة أهداف الاستهلاك المحلى فى حين أن المزارعين الدانيماركيين يعملون فى المقام الأول لخدمة اغراض التصدير والتسويق الخارجى. والقيم الثقافية للمزارعين الدانيماركيين من شأنها المعاونة على اعتناق الأفكار الجديدة فى حين أن المعايير السائدة فى البيئة البولونية تخدم استمرار الأوضاع القديمة الموروثة .

وثمة مثال أخير على الصلة بين الثقافة وانتشار الأفكار الجديدة فى بيئة من البيئات نجده واضحاً فى مجتمع هنود « الشوشونى » الضاربين فى ولاية « نيفادا » . إن القيم الثقافية من شأنها أن تؤثر ليس فقط على اعتناق الفكرة الجديدة أو رفضها ، بل أيضاً على الطريقة التى يتم بمقتضاها اندماجها فى صميم أسلوب الحياة السائدة فى مجتمع من المجتمعات . والنتائج المترتبة على انتشار فكرة مستحدثة يقررها ويحدد شكلها العام الثقافة السائدة فى المجتمع . فعند ما دخلت الخيول فى ثقافة هنود « الشوشونى » استطاع هؤلاء أن يعرفوا ماذا ينبغى لهم أن يصنعوه بهذه الخيول . لقد كان لهذه القبائل خبرة سابقة بالخيول إذ سبق لهم أن سرقوا خيول المهاجرين الأول وذبحوها لطعامهم ، وعلى ذلك عندما كانوا يمنحون عدداً من الخيول لاستخدامها فى نقل الأثقال وجر العربات رحبوا بها ترحيباً كبيراً ولكنهم كانوا يأكلونها .

المعايير القديمة والحديثة

ومن الأمور الهامة ، من الناحية النظرية ، أن نفرق بين نمطين مثاليين من أنماط المعايير وهما النمط التقليدى القديم والنمط الحديث . ولسوف نتحدث الآن عن هذين النوعين من أنماط المعايير ولكننا نعتقد أن القارىء ينبغى أن يفهم أولاً المقصود « بالأنماط المثالية » . والأنماط المثالية ماهى

إلا مفاهيم واقعية قائمة على أساس ملاحظات تدور حول الحقيقة وهذه المفاهيم ذات تركيب يثير المقارنات . والأنماط المثالية ليس من الضرورى أن توجد على شكل اختبارى ولكنها قد تنشأ عن طريق تجريد السمات المميزة للسلوك الذى نقوم بتحليله تجريداً يصل إلى حدود المنطق الوضعى .

والأمثلة الاختبارية (فى حالة المعايير) تقارن عادة مع الأنماط المثالية لرؤية مدى اقتراب الحالات الاختبارية من الأنماط المثالية . والهدف من إقامة الأنماط المثالية إنما يدخل مباشرة فى نطاق مناهج البحث إذ أن هذه الأنماط توفر الأدوات اللازمة للتحليل وما يتفرع عنه من تعمق فى الفهم. والأنماط المثالية إنما هى « مثالية » ليس من ناحية أنها تبصرنا بما ينبغى أن يكون بل لأنها تبرز منطقياً بعض أبعاد التحليل . والأنماط المثالية يمكن أن تنشأ لأغراض التحليل المنطق فى مجالات الدراسة بكل أنواعها .

ومنذ عهود سحيقة فكر رجال علم الاجتماع فى الأنماط القطبية التى هى فى الواقع أنماط مثالية تتضمن ما عبر عنه عالم الاجتماع « دوركيم » بالتضامن الآلى العضوى ، و « فيبر » بالأنماط الاجتهادية والتقليدية ، و « هاولى » بالأنماط ذات الكيان المشترك مع الحياة المستقلة ، و« مرتون» بالأنماط المحلية العالمية ، و « سوروكن » بالأنماط الخاصة مع العامة ، و « بيكر » بالأنماط الدينية الدنيوية . والأنماط المثالية للمعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعى وهى المعايير المستخدمة هنا — بنوعيها التقليدى والحديث — تقوم ، على الأقل فى ناحية من نواحيها ، على أسس مستمدة من الأنواع المثالية سابقة الذكر .

ومن الجائز أن نرى من يستخدم عدداً من المرادفات لما أوجزنا فى مجال وصف النمط الحديث للثقافة فيقال إنها ثقافة أكثر استعداداً لقبول

الافكار الحديثة ، أو أكثر قابلية للتطور ، أو أكثر تقدماً ، أو أكثر إحساساً بأهمية العامل الاقتصادى . والبعد الخطر ، على أى حال ، هو أن الأفراد فى التنظيمات الاجتماعية التى تأخذ بالمعايير الحديثة تنظر إلى الأفكار الجديدة نظرة أفضل وهم على استعداد لاعتناقها أسرع مما هو الحال مع أولئك الذين ينتمون إلى تنظيمات اجتماعية تقليدية . إن دعاة التجديد من شأنهم الترحيب بالتغيير فى حين أن أنصار النظم السائدة يقاومون كل ما هو جديد .

وفى كلمات عامة ، يمكن القول إن التنظيم الاجتماعى ذى المعايير التقليدية يتميز بسمات معينة ، منها :

١ — الأسلوب التكنولوجى المتأخر — الزراعة لأغراض التموين المحلى هى الاتجاه الغالب .

٢ — التعليم المحدود الذى لا يرتفع عن مستوى القراءة والكتابة — الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة وليس عن طريق وسائل الإعلام الجماعى .

٣ — ابتعاد أفراد التنظيم الاجتماعى عن الاتصال بغيرهم ممن يعيشون فى تنظيمات اجتماعية أخرى .

٤ — انعدام التفكير الاقتصادى بحيث ينظر الناس إلى العلاقات الجماعية الأولى كالود والكرم ليس باعتبارها أموراً أساسية فى المجتمع ، بل باعتبارها غايات فى حد ذاتها وليست وسائل إلى غايات .

٥ — انعدام القدرة لدى الأفراد على وضع أنفسهم فى مواضع الغير وتخيل ما يحدث بعد ذلك . والشخص الخاضع للأوضاع التقليدية لا يقابل أفراداً جدداً ، ولا يقوم بأعمال جديدة ، ولا يدخل نفسه فى علاقات اجتماعية جديدة كما يفعل الشخص العصرى . والأفراد المنتمون لتنظيم اجتماعى تقليدى قديم يقومون فى العادة بعمل واحد محدد الملامح ولا يحاولون أن يتعلموا أعمالا أخرى .

والتنظيم الاجتماعى العصرى يتميز بالآتى :

١ — تكنولوجيا متقدمة مع تخصص دقيق . وأفراد هذا التنظيم تغلب على أعمالهم المسحة الحضرية وهم من تلك الناحية يفوقون غيرهم ممن ينتمون للتنظيم الاجتماعى التقليدى القديم . وبالرغم من أن التنظيم الاجتماعى التقليدى قد يكون قد لحقه شىء من التصنيع إلا أن نمط هذا التصنيع لن يخرج عن نطاق الصناعة الصغيرة ، صناعة الكوخ ، وليس صناعة المصنع الكبير .

٢ — تقدير عال للعلوم والتربية .

٣ — عالمية العلاقات الاجتماعية . والآراء الجديدة تأتى عادة إلى التنظيم الاجتماعى من مصادر خارجية كما أن أفراد التنظيم الاجتماعى العصرى يتفاعلون عادة مع غيرهم ممن يعيشون فى تنظيمات اجتماعية أخرى .

٤ — التخطيط فى هذا التنظيم يكون عادة على درجة كبيرة من الدقة كما أن القرارات التى تصدر فى نطاق هذا التنظيم تتجه وجهة اقتصادية مفيدة للجميع كما أن أنجع الوسائل تستخدم للوصول إلى الأهداف المرجوة .

٥ — القدرة على أن يضع المرء نفسه فى مكان غيره ويتصور عمله ومسئولياته .

والخلاصة أن التنظيم الاجتماعى الخاضع لمعايير حديثة يكون فى العادة أكثر تقدماً تكنولوجياً ، كما يكون أكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، وأكثر انغماساً فى قضايا التعليم ، وأكثر واقعية فى التفكير ، وأخيراً أكثر ثقة وأكثر تأكيداً . والاستراتيجية التقليدية للحدث وصفها « فون نيومان » و « موجانسترن » عام ١٩٥٣ فى تعبيرات شبيهة بتلك التى يستخدمها المهتمون بالرياضة البدنية . فاللاعب التقليدى ، بدلا من أن يتخذ قراراته تبعاً للحاجة إلى مثل هذه القرارات وخضوعاً لظروفها ، يفكر عادة تفكيراً

سابقاً لأوانه ويتخذ لكل أمر عدته . على هذا نقول إن الشخص التقليدى « يبدأ لعبه بخطة كاملة ، أى بخطة تتضمن النص على ما ينبغى أن يفعل فى كل موقف من المواقف التى قد يتعرض لها وإزاء ما يمكن أن يعتنقه من أفكار ومعلومات » . وفى التنظيم الاجتماعى التقليدى تتولى سلطة عليا ، هى سلطة استلهام الأمس والعودة إلى ما كان يفعله الآباء ، تقرير نوع التصرف الذى ينبغى أن يتبع فى موقف من المواقف .

وثمة خطر واحد ينتج عن التفكير بطريقة الأنماط الثقافية المثالية ألا وهو أن مدى التباعد بين الفروق الكامنة فى المعايير من الجائز أن يبالغ فى التأكيد عليها . أى أنها قد تعمل من الحبة قبة . والخلاصة أن الأنماط المثالية التقليدى منها والحديث ما هى إلا مراحل قطبية على الطريق التى يقطعها انتشار الفكرة الجديدة .

وحديثنا هذا ينبغى ألا يفهم على أنه يعنى أن المعايير التقليدية ليست مطلوبة بالضرورة . وفى حالات عديدة ، قد يمنح القدم صفة الاستقرار لتنظيم اجتماعى معرض للتغيير السريع ولخطر التفكك .

قياس البعد الموضح لمدى القدم أو الحداثة

١ — على مستوى الفرد :

ها نحن قد فرغنا من الكلام عن معايير النظام الاجتماعى التقليدى والحديث . ومن الممكن أن نقيس مراكز الأفراد فوق رقعة منتشرة تبدأ من نمط مثالى إلى نمط مثالى آخر . والأساليب الفنية المنوعة التى استخدمت لقياس البعد المعبر عن مدى القدم أو الحداثة على مستوى الفرد تتضمن :

١ — مقياس « بنفنوتى » الذى وضعه عام ١٩٦١ وهو يتكون من عشر نقاط . ولقد سئل كل فلاح فى مجموعة من الفلاحين عددها ٤٨٤ ، وتسكن بلدة ريفية فى هولندا معرضة لتغيرات اجتماعية عديدة ، سئلوا

رأيهم عن كل نقطة من النقاط العشر . لقد خصصت درجات لكل إجابة عن كل نقطة من النقاط العشر سواء أكانت صحيحة أم خاطئة . وإن درجة انغماس الفرد فى قضايا المجتمع الخارج عن بيئته الصغيرة التى يعيش فيها كانت على هذه الحال كأنها المسطرة التى استخدمها « بنفنوتى » لقياس درجة العصرية والتحرر من قيود الماضى . وثمة من الشواهد ما يثبت صدق هذا المقياس .

٢ — مقياس « ليرنر » الذى وضعه عام ١٩٥٨ لقياس درجة العصرية والتحرر من تقاليد الماضى وطبقه على عدد من مواطنى بعض الدول الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط سائلاً إياهم رأيهم فى تسعة أسئلة تدور حول قضايا عامة . لقد قسم « ليرنر » هؤلاء المواطنين إلى فئات ثلاث على أساس ما فى إجاباتهم من اتجاهات سواء نحو القديم ، أو نحو المتوسط ، أو نحو الحديث . لقد افترض « ليرنر » أن الأفراد المتجهمين نحو الأخذ بالحديث ينبغى أن تكون لديهم القدرة على تقمص المواقف والأدوار الخاصة بمن ينتمون للبيئات الأخرى الخارجة عن البيئة الضيقة للفرد وهم بذلك يجب أن يكون لهم رأى فى القضايا العامة ذات الصلة بمجتمعات خارجة عن مجتمعاتهم .

٣ — الكشاف الذى وضعه العالم « كوب » عام ١٩٥٦ والخاص بهذا البعد فى أوساط مربى الأغنام بولاية « كانساس » وهذا الكشاف وضع بسؤال هؤلاء عما اعتقدوا أنه من مقومات النجاح فى مجالات الزراعة وإدارة المزارع . ولقد قسمت الإجابات إلى حديثة (أى مرنة) أو تقليدية (أى جامدة) . ومن الإجابات التى اعتبرها « كوب » ذات اتجاه تقليدى قديم إجابات مثل : « عمل شاق » ، « كد وعناء لا ينتهيان » ، « لا تذكرنى بما أعانى » .

٤ — مقياس « هوب » الموضوع عام ١٩٦٠ ويوضح إذا ما كانت العينة

التى اختارها، وهى العينة المكونة من ٣١٥ مزارعاً من مزارعى ولاية «أيووا» «تسير فى طريق العمل التقليدى» أو أنها «تتجه نحو التنظيم». لقد اعتبر «هوب» أن السير فى الطريق التقليدى إنما هو دلالة من دلالات التعلق بالقديم.

وفى لمحة كلامية بارزة المعالم أدلى بها فلاحان هولنديان من بين الذين اتخذهم «بنفنوتى» موضوعاً لدراسته عام ١٩٦١، نستطيع أن نحظى بإشراقة تبصرنا بمواقع الأفراد من السياق المطرد للبعد الموضح لمدى القدم أو الحداثة.

الفلاح الأول: عصرى الاتجاه:

تسكن عائلة هذا الفلاح مزرعة يفوق حجمها الأحجام المعتادة فى المزارع، ولكن الاتجاه العصرى لأفراد هذه العائلة يعزى لشىء آخر أكثر من مجرد المستوى الاجتماعى المرتفع. ورب هذه الأسرة مشغول دائماً وهو أيضاً يعطى ما يعمل كل اهتمامه وعلى ذلك كان مما لا مناص منه أن يحل الحديث التليفونى محل المقابلة الشخصية. لقد كان هذا الفلاح مسئولاً عن الجمعية التعاونية المحلية كما كان مشتركاً فى عدة هيئات محلية فى قريته. ولما سئل عما لوحظ على مخزن غلاله وعلى منشئاته من اختلال فسر الفلاح ذلك بقوله: «لابد للمرء من أن يتساهل قليلا فى المظاهر وأن يحاول العمل بجد وكفاية على قدر الطاقة».

وهذا الفلاح يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، متخرج من مدرسة زراعية، ولم ينقطع منذ تخرجه عن حضور الدراسات المسائية العملية فى الزراعة. لقد أخذ المزرعة عن أبيه الذى تركها وعاش فى المدينة. وزوجة هذا الفلاح ترتدى الملابس العصرية وكانت قد عادت توا من جولة فى المحال العامة للشراء عند ما ذهب الباحث لمقابلتها ومعرفة ردودها على أسئلة الاستفتاء. لقد أظهر أطفال العائلة سلوكاً ودياً تجاه الزائر إذ من الواضح أنهم كانوا معتادين على رؤية الغرباء فى منزلهم. كانت العائلة قد عادت توا

من زيارة سياحية لعدة مدن هولندية نظمتها إحدى الجمعيات الريفية ، وكانت العائلة معتادة على تمضية إجازاتها فى زيارة الأصدقاء المقيمين فى مدن أخرى أو الاسترخاء على شاطىء البحر . على أن هذه العائلة لم يكن لديها أصدقاء من بين أهالى الجيرة القريبة ، كما أن أصدقاءهم فى المدن لم يكونوا من فئة المزارعين أمثالهم . وفى أثناء المقابلة مع الباحث حضر شخص من جيران المزارع طالباً النصيحة فى مشكلة زراعية وكان من الواضح أن جيران هذا المزارع ينظرون إليه على أنه من الفلاحين ذوى النزعة التقدمية .

كان هذا المزارع يدير شئون مزرعته إدارة مالية دقيقة، ويستخدم بذوراً نظيفة ، كما كان الممثل المحلى لإحدى شركات الآلات الزراعية وكان على علم ببعض الأفكار الزراعية الحديثة اكتسبها من أسفاره العديدة ومن اطلاعه على المطبوعات التى تعالج الموضوعات الزراعية . ومن الجدير بالذكر أن الباحث استطاع أن ينشىء علاقة مباشرة مع هذا المزارع فكان يزوره مرة كل شهر كما كان يتصل به تليفونياً مرات عديدة . وفى ختام البحث عندما صحب الباحث حتى الباب الخارجى قال المزارع للباحث : « عندما تكمل بحثك هلا مكنتنى من الاطلاع على نتائجه ؟ » .

الفلاح الثانى : متمسك بالتقاليد :

ومن نواحى عديدة تشكل عائلة هذا الفلاح الصورة المضادة لعائلة الفلاح الأول . والفلاح الثانى أكبر سناً من الفلاح الأول كما أنه أقل تعليما وصحبته لا تتعدى الأفراد المحليين ولا تتجاوزها أبداً إلى آفاق أكبر وكذلك الحال مع أفراد عائلته . وعندما سئلت زوجته عما إذا كان أصدقاء العائلة من بين أفراد الجيرة القريبة أم لا أجابت بنبرة خاصة مؤداها : « كيف يمكن للإنسان أن يكوّن لنفسه مجموعة من الأصدقاء إذا لم يختر أصدقاءه من بين الساكنين بالقرب منه ؟ » .

وأبنية المزرعة التي يملكها هذا الفلاح تحتاج إلى الكثير من الإصلاحات الضرورية كما أنها تنقصها المعدات والآلات اللازمة للزراعة وما يتفرع عنها من أعمال وكذلك تنقصها الإدارة المالية المنظمة . ولقد ارتبك هذا الفلاح واستولت عليه الحيرة عند سماعه لكثير من الأسئلة التي طرحها عليه الباحث الاجتماعي ولم يجد لها جواباً إذ لم يكن قد فكر في الموضوعات التي تناولتها الأسئلة. وعندما سئل عن السبب الذي من أجله يساء استخدام حيوانات المزرعة وتنعدم العناية بها أجاب قائلاً : « حسن ، لقد كان هذا هو حالها دائماً ونحن نراها ملائمة لنا هكذا » .

ظل هذا الفلاح يكرر القول بأنه مضطر إلى أن يعمل عملا شاقاً متواصلاً لكي يعيش هو وأفراد عائلته فلا أجازات ولا تسلية من أي نوع بل حرمان كامل من الصحبة والزوار والأصدقاء . أما أطفال هذا الفلاح فكان يبدو عليهم الميل إلى الانزواء والشعور بالخجل ، ولقد جلسوا منكمشين في ركن من المطبخ أثناء الحديث بين الباحث الاجتماعي وأبيهم .

كانت الأسرة تعتبر من الأسر الكثيرة العدد إذ أن والد هذا الفلاح ووالدته شاركاه حياته كما كان لهما تأثير كبير على مجرى الأمور في حياة الأسرة . لم يكن من عادة أفراد هذه الأسرة أن يطلعوا على الجرائد والمجلات كما لم يهتموا أي اهتمام بالسياسة والقضايا العامة .

على أن هذا الفلاح كان معارضاً للإجراءات التي تحتمها الحكومة لضمان النظافة العامة في أماكن حلب اللبن وتصنيعه ، وكان يقول : « إن العيب عيب الموظفين الذين لا هم لهم اليوم سوى البحث عما يحفظ لهم وظائفهم » . ومن السهل على المرء أن يكتشف ما يحس به هذا المزارع من شعور بالغرابة إزاء البيئة التي يعيش فيها وأهلها — إنه ليحس بأن هذه البيئة تتغير تغيراً سريعاً وتسير في اتجاهات لا سلطة له عليها .

وجد أفراد الأسرة صعوبة في الإجابة على عدد كبير من الأسئلة التي

كانت توجه إليهم من الباحث الاجتماعى . ويمكن القول إن الاستهتار وعدم الاهتمام كان الطابع المميز لهؤلاء عند الإجابة على الأسئلة المكون منها الاستفتاء . والإجابة الأولى لكل سؤال تقريباً كانت « أجل » . فمثلا عندما كان السؤال :

« هل والداك مازالا على قيد الحياة ؟ » ، كانت الإجابة « أجل ولكنهما توفيا » . لم يحس هذا المزارع بالكثير من الاهتمام فى شأن الأسئلة التى كانت توجه إليه من قبل الباحث الاجتماعى ولذا كانت ردوده مقتضبة وظل الحال كذلك حتى نهاية المقابلة .

والتسميات المميزة للأفراد العصريى الاتجاه والمتمسكين بالتقاليد الذين تقابلهم عادة فى المجتمعات الأخرى قد تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التى تميز هذين الشخصين : المزارع الأول والمزارع الثانى . وبالرغم من ذلك نقول إن المزارع الأول يمثل النمط المثالى الحديث الذى سبق أن تحدثنا عنه فى مطلع هذا الفصل . ونحن إذا قارنا بينه وبين المزارع الثانى لوجدناه أقدر منه من الناحية الفنية التكنولوجية ، وأكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، وأكثر تعليماً ، وأعمق فهماً لأوضاعه المادية وأشد ثقة بنفسه .

ومن الأمور الهامة ملاحظة أنه فى كل دراسة من هاتين الدراستين ، كلما وجد مقياس مناسب لقياس البعد الخاص بالاتجاه نحو القديم أو بالأخذ بأسباب الحديث على مستوى الفرد ، فإن درجة مبادرة الفرد إلى تبنى الفكرة الجديدة تخضع لمدى تعرضه للمؤثرات العصرية لا لغيرها من المؤثرات . ومما يثير دهشتنا حتما أن نجد أحداً من الناس ممن يتعرضون للمؤثرات العصرية أقل حساسية للأفكار المستحدثة من غيره . ومما يبعث الطمأنينة إلى نفوسنا علمنا بأن هذا التقييم تؤيده إلى أبعد الحدود البحوث العلمية التجريبية .

والأفراد المنتمون لتنظيم اجتماعى معين ممن يتميزون بالاتجاه نحو

الحديث لا يكونون أكثر خضوعاً للأفكار الحديثة من أقرانهم التقليديين فحسب ، بل من الجائز أن نعثر على قدر يسير من الصلات الاجتماعية بين الفئتين ، وهذا ما يوضحه «فان دى بان» عام ١٩٥٧ فى بحثه عن انتشار فكرة الحلب الصناعى فى قرية من قرى هولندا ، حيث وجد أن عدداً قليلا ممن يأخذون بالأفكار الحديثة كان لهم قصب السبق فى الأخذ بالفكرة الجديدة ، وبعدها مباشرة تكاثر اتباع الفكرة . على أنه بعد ذلك لوحظ أن مدى انتشار الفكرة بدأ يضعف بسبب أن الغالبية العظمى من المزارعين ذوى الاتجاهات التقليدية لم يعتنقوا الفكرة الجديدة . لقد اكتشف «فان دى بان» أن الصلات الاجتماعية بين الفئتين من المزارعين ـ العصريين والتقليديين ـ تكاد أن تكون معدومة ، كما لو كانت كل فئة تعيش فى تنظيم اجتماعى منفصل عن الآخر وليس فى بيئة واحدة .

٢ ـ معايير التنظيم الاجتماعى :

والبعد الخاص بمدى الأخذ بالأفكار الحديثة أو الاتجاه نحو الأوضاع التقليدية القديمة يقاس الآن ليس فقط على مستوى الفرد بل كذلك على مستوى معايير التنظيم الاجتماعى السائد . والصعوبة الناشئة عن قياس هذا البعد على المستوى الجديد ، وهى الصعوبة التى أوجدها تعـــدد الأنماط السلوكية فى التنظيم الاجتماعى الواحد ، قد تكون فى حد ذاتها أكبر من صعوبة قياس التمسك بالقديم على المستوى الفردى .

وفى مجال الأخذ بالأفكار الحديثة أو الالتزام بالقديم ، ثمة طرائق ثلاث متباينة لقياس معايير التنظيم الاجتماعى السائد :

١ ـ إيجاد المعدلات الرقمية لأفراد التنظيم الاجتماعى فى مجال الأخذ بالأفكار الحديثة ، وبعدها يمكن المقارنة بين هذه المعدلات فى بيئة معينة وبين مثيلاتها فى بيئات أخرى . ومن بين الباحثين الذين استخدموا هذه

الطريقة، طريقة المعدلات الرقمية ، «مارش» ، و« كولمان» ، و«فان دى بان » ، و « راهودكار » ، و« روجرز » ، و « بيردج » . وثمة صعوبة يواجهها أحياناً من يأخذ بطريقة المعدلات الرقمية هى أن الأفكار المستحدثة ليست هى نفسها فى كافة المجتمعات التى تجرى فيها الدراسة . فالفلاحون فى بيئة من البيئات مثلا قد لا يربون أبقار الحلب وعلى ذلك فإن الأفكار المستحدثة فى مجال الحلب لا يمكن أن تستخدم لقياس مدى « عصرية » أفراد هذه البيئة .

٢ — إيجاد مقياس قائم على أساس فكرة أفراد البيئة عن الذين يأخذون بجديد الأفكار ، فإذا كان أفراد البيئة ينظرون إلى هؤلاء نظرة طيبة يمكن القول بأن التنظيم الاجتماعى السائد فى تلك البيئة يسير وفقاً لمعايير عصرية . فمثلا نحن نجد أن « فان دى بان » يسأل الفلاحين فى ثلاث قرى هولندية : « كيف ينظر الناس هنا إلى الفلاحين الذين يبادرون قبل غيرهم إلى اتباع الآراء الحديثة فى الزراعة ؟ » . بعد ذلك يتخذ من الشعور الغالب لدى أفراد البيئة ، سواء أكان طيباً أو رديئاً ، أساساً لقياس معايير التقدم أو التأخر فى مجال الأخذ بالأفكار الجديدة فى البيئة .

٣ — الاعتماد على تقديرات الخبراء ، وهؤلاء يكونون عادة على معرفة عميقة بكل النظم والتركيبات الاجتماعية للبيئة التى تدرس ، وقادرين على ترتيب هذه النظم من ناحية تقدمها أو تأخرها فى مجال الأخذ بالأفكار الجديدة على أن يقاس هذا التقدم أو التأخر وفقاً للمعايير التى يضعها هؤلاء الخبراء . وهذه الطريقة استخدمها « كامبل » و « هوليك » عام ١٩٦٠ فى بيئتين زراعيتين من بيئات ولاية « ميزورى » ، وكذلك استخدمها « روجرز » و « بيردج » عام ١٩٦٢ فى سبع قرى فى ولاية « أوهايو » .

ويعطينا الجدول التالى بياناً مقارناً للمقاييس الثلاثة التى تقاس بها المعايير

المختلفة فى تلك القرى السبع . والتشابه الكبير الذى نلحظه على هذه المقاييس الثلاثة يوحى بأن كل مقياس من هذه المقاييس له نفس الدرجة من الثبات .

ما من واحد من هذه المقاييس الثلاثة لقياس المعايير الاجتماعية يمكن أن يقال إنه فوق النقد الموضوعى . ومع ذلك فلابد أن نتذكر دائماً أنه، بالرغم من الأهمية الكبيرة للمعايير فى الكتابات الاجتماعية، فإن ثمة محاولات قليلة جداً بذلت لقياسها . ومن الجائز أن نجد مستقبلاً جهوداً فى مجال البحث تستهدف تطوير المقاييس الخاصة بالمعايير الاجتماعية فى مجال الأخذ بالجديد أو إلتزام القديم وفى غير ذلك من المجالات .

وبالرغم من ذلك تهيء المقاييس الراهنة لنا دليلا يهدينا إلى المعايير ذات الصلة بالتنظيم الاجتماعى .

ومن الممكن القول بأن المعايير الخاصة بإحدى التنظيمات الاجتماعية إنما هى أكثر التزاماً بالتقاليد أو أكثر اتجاهاً نحو الجديد من معايير تنظيم اجتماعى آخر .

بيان مقارن

لثلاثة مقاييس تقيس التنظيم الاجتماعى فى مجالات التزام القديم أو الأخذ بالجديد مع الاستعانة بمعلومات مستمدة من سبع قرى زراعية فى ولاية «أوهايو»

أسماء القرى السبع فى ولاية « أوهايو »	المعدلات النسبية الدالة على استعداد الفلاحين للاخذ بالأفكار الجديدة فى كل قرية كمعيار من معايير البيئة	النسب المئوية للفلاحين فى كل قرية الذين ينظرون نظرة طيبة إلى من يأخذ بجديد الأفكار باعتبار هذه النسب معياراً من معايير البيئة	التقديرات المعيارية لثلاثة قضاة لتحديد المعايير الدالة على « عصرية » أهل البيئة
أوك جروف	٥,١٥	١٠٠ ٪	٦,٧
دى فولا	٤,٩٢	٦٧ ٪	٦,٣
بيفرلى	٤,٦٠	٨٩ ٪	٣,٧
رينو	٤,٢٢	٨٦ ٪	٣,٣
لويل	٣,٩٥	٥٦ ٪	٣,٣
بلبرى	٣,٨٦	٤٣ ٪	٢,٣
هبلجروز	٣,٨٣	٦٥ ٪	٢,٣

معايير التنظيم الاجتماعى

وقابلية الفرد للأخذ بجديد الأفكار

لقد أوضحنا فى أول هذا الفصل أن للمعايير السائدة فى البيئة دخل كبير فى تقرير ما إذا كانت الفكرة الجديدة قابلة للانتشار بين أفراد البيئة ونتائج هذا الانتشار . كذلك أوضحنا أنه إذا كانت المعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعى فى مجال التزام القديم والأخذ بالجديد على درجة كبيرة من الأهمية فإن هذه المعايير ينبغى أن توضح ناحية من نواحى الاستعداد لتبنى الأفكار الجديدة وهى الناحية التى لا يمكن تفسيرها بأية طريقة أخرى . وفى كلمات أخرى ، نقول إن المعايير الخاصة بتنظيم اجتماعى معين ينتظر أن تؤثر على سلوك أفراد هذا التنظيم . إن استعداد الفرد للأخذ بجديد الأفكار يختلف مباشرة مع المعايير التى يصطنعها تنظيمه الاجتماعى لهذا الاتجاه .

وثمة دراستان هامتان تؤكدان صحة هذه القضية الأخيرة :

١ — درس « فان دى بان » عينة مكونة من ٩٠٣ من الفلاحين المقيمين فى ٤٧ دائرة سكنية . والمعيار الذى وضع لكل ناحية من هذه النواحى السبع والأربعين لقياس التمسك بالقديم أو الاتجاه نحو الجديد قام أساساً على طريقة حساب المعدلات النسبية الدالة على مدى الاستعداد للأخذ بالأفكار الجديدة . وإن صفات مثل درجة تعلم الفلاح ، وحجم المزرعة ، والحالة الاقتصادية الغالبة ، ظهر أنها ترتبط ارتباطاً إيجابياً بقابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة . غير أن المعايير الخاصة بتلك الدوائر السكنية اتضح أنها أقدر على الكشف عن قابلية الأفراد لتبنى الأفكار المستحدثة من تلك الصفات الاجتماعية والاقتصادية . وانتهى « فان دى بان »

فى دراسته إلى أن الفلاح ، ذا الدرجة العالية من التعليم والمزرعة الكبيرة والمستوى المادى المرتفع وإن سكن منطقة لها معيار اجتماعى يتمسك بأهداب القديم ، فإنه يميل إلى اعتناق قدر من الأفكار الزراعية الحديثة أقل من القدر الذى كان لابد أن يعتنقه لو أنه عاش فى منطقة سكنية لها معايير اجتماعية تتجه نحو الأخذ بما هو عصرى فى مجال الزراعة وإدارة المزارع .

٢ — والدراسة الثانوية هى الدراسة التى قام بها «روجرز» و «بيردج» عام ١٩٦٢ على سبع قرى فى ولاية «أوهايو» تهتم بزراعة الخضروات . لقد وجد الباحثان أن معايير تلك البيئة تفسر من الناحية الإحصائية عشرين فى المائه من التغيرات فى المعدلات النسبية بقابلية الفلاحين لاعتناق الأفكار الجديدة وذلك بالإضافة إلى التغيرات المتسببة عن أربع صفات اجتماعية .

والمعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعى تؤثر على قابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة ، وليس هذا فقط بل إنها أيضاً تدخل فى تكوين تعميمين سوف يأتى ذكرهما بالتفصيل فى الفصل الثامن . والتعميمان هما :

١ — معايير التنظيم الاجتماعى فى مجال اعتناق الأفكار الجديدة يبدو أنها تقرر ، على الاقل جزئياً ، قابلية قادة الرأى فى البيئة لاعتناق الأفكار الجديدة . وقادة الرأى فى التنظيمات الاجتماعية ذات الاتجاه العصرى ثبت من عدد كبير من الدراسات أنهم فى غالبيتهم ممن يقبلون على اعتناق الأفكار الجديدة كما يسبقون غيرهم فى هذا المجال . غير أنه فى التنظيمات الاجتماعية حيث يتمسك الناس بقديم التقاليد يكون قادة الرأى فيها أقل قابلية لاعتناق المستحدث من الأفكار .

٢ — إن الاختلافات فى درجة قابلية الناس لاعتناق الأفكار الجديدة إنما تشكل حائلا هاماً يحول دون تدفق التأثيرات داخل التنظيم الاجتماعى ذى المعايير المتطورة وأهمية هذا الحائل تفوق أهميته عندما تكون المعايير

قديمة جامدة . فمثلاً فى التنظيم الاجتماعى التقليدى القديم قد يبحث المتزمت عن معلوماته لدى أحد المعتنقين الأول للأفكار ، أما فى التنظيم الاجتماعى العصرى فمن الأمور الأكثر احتمالاً أن يتحدث المتزمت إلى فرد يفوقه قليلاً من حيث القابلية لاعتناق الجديد من الأفكار .

البحث الذى نحتاجه :

يخلو الميدان الآن من بحث يتناول أثر المعايير المتعلقة بالتنظيم الاجتماعى على قابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة فى ميدان الثقافات خارج الولايات المتحدة ، فى حين أن الفروق المعيارية قد تكون نسبياً أكثر أهمية ، وعلى ذلك فهى خليقة باهتمامنا .

من الجائز أن تكون التعميمات الخاصة بانتشار الأفكار فى البلدان التى « لم تستكمل نموها بعد » على درجة من الغموض لأن بحوثنا فى هذا الشأن نسبياً « لم تستكمل نموها بعد » وبخاصة لأن ثقافات هذه البلدان مازالت غريبة على أفهامنا . والنقص فى النتائج الجادة المترتبة على بحوث انتشار الأفكار الجديدة فى البلدان التى من هذا النوع توضحه الحقيقة الثابتة ألا وهى أنه ما يقرب من تسعة وثلاثين بحثاً فقط من البحوث الأربعمائة والخمسة والستين التى يستعرضها هذا الكتاب جرت فى مناطق لم تستكمل نموها بعد . ومن أمثلة ذلك أن الخمسمائة والثمانى والخمسين ألف قرية ريفية فى الهند تهيئ لنا مختبراً مفيداً يساعدنا على تمحيص الآراء حول أثر المعايير السائدة فى المجتمع على انتشار الأفكار . ومن الأمور المتوقعة فى هذا المجال أن تهدف الجهود التى تبذل فى ميدان البحث إلى تحديد العلاقات التى تربط معياراً بمعيار ، وكذلك أثر المعايير على سلوك الفرد .

ومن أمثلة الدراسات التى أجريت للكشف عن العلاقات التى تربط معياراً اجتماعياً بمعيار اجتماعى آخر ، ما قام به « أرمسترونج » عام ١٩٥٩

من محاولة لتفسير المتغيرات فى مجال انتشار الأفكار الزراعية المستحدثة بين سكان قرى ولاية « كنتكى » . لقد أوجد هذا الباحث مقياساً يقيس به المعايير، وهذا المقياس يختلف باختلاف البيئات الواقعة فى تلك الولاية ، وربط بينه وبين المتغيرات الشائعة فى كل بيئة كدرجة التحضر ، والمستوى الاقتصادى للقاطنين فى البيئة ، والتخصص الزراعى الذى تلتزم به تلك البيئة . والمحاولة فى هذا النمط من البحث إنما تستهدف بقدر الإمكان تفسير التغير فى معايير البيئة ، تلك المعايير التى تقيس درجة إقبال الناس على اعتناق الأفكار الجديدة ، أكثر مما تفسر التغير فى قابلية الأفراد أنفسهم على اعتناق الأفكار الجديدة .

والجدول الآتى يبين خمسة أنواع مختلفة من أنواع التحاليل التى وضعها الباحثون فى مجال انتشار الأفكار الجديدة . والنمط الأول من هذه التحاليل سوف يكون موضوع دراستنا فى الفصل الخامس ، والنمط الثانى فى الفصل السادس . أما النمطان الثالث والرابع فقد نوقشا فى هذا الفصل من الكتاب ولكنهما لم يحظيا بالاهتمام الذى ناله النمط الثانى ، والنمط الرابع خاص بتحليل العلاقة بين معيار ومعيار وهو النمط الذى تعرضنا له فى هذا القسم من الكتاب وتمثله أكمل تمثيل الدراسة التى قام بها « أرمسترونج » . أما النمط الخامس والأخير فلم يوضع موضع الدراسة بعد وإن كان لابد أن يدرس . ناحية أخرى من نواحى البحث المطلوب ، أو البحث الناقص ، هى محاولة الكشف عن الطريقة التى تظهر بمقتضاها معايير التنظيم الاجتماعى سواء على الجانب العصرى أو الجانب التقليدى القديم . هذا النوع من الدراسة قد يؤدى إلى الاهتمام بالناحية التاريخية .

وإذا كانت المعايير مهمة فى تشكيل السلوك الفردى ، فى هذه الحال

أنماط التحليلات التى قام بها الباحثون فى مجال انتشار الأفكار الجديدة
أو التى يمكن أن يقوموا بها مستقبلا

الأنماط	المتغير التابع*	المتغيرات المستقلة*	وحدة التحليل
النمط الأول	معدل السرعة الذى يتم بمقتضاه تبنى الفكرة الجديدة فى التنظيم الاجتماعى .	الصفات المميزة للفكرة الجديدة كما يراها أفراد التنظيم الاجتماعى	الفكرة الجديدة
النمط الثانى	قدرة الأفراد على تبنى الأفكار الجديدة فى تنظيم اجتماعى معين .	الصفات المميزة للأفراد .	الفرد نفسه
النمط الثالث	قدرة الأفراد على تبنى الأفكار الجديدة فى تنظيم اجتماعى معين .	معايير التنظيم الاجتماعى فيما يختص بالتزام القديم والأخذ بالحديث.	الفرد نفسه
النمط الرابع	معايير التنظيم الاجتماعى فيما يختص بالتزام القديم والأخذ بالحديث .	معايير أخرى وصفات مميزة للتنظيم الاجتماعى.	التنظيم الاجتماعى
النمط الخامس	الصفات المميزة للفكرة الجديدة كما يراها أعضاء التنظيم الاجتماعى .	قدرة الأفراد فى التنظيم الاجتماعى على تبنى الأفكار الجديدة .	الفرد نفسه

* المتغير التابع هو العامل الأساسى فى الدراسة فى حين أن المتغيرات المستقلة هى تلك العوامل ذات الصلة بالمتغير التابع .

يكون من الضرورى تحديد الطريقة التى يتم بمقتضاها تغيير المعايير التى تسود فى التنظيم الاجتماعى .

وحتى وقتنا هذا ، ثمة قدر صغير من التوفيق بين ما هو معروف عن ذيوع الأفكار الجديدة وبين النظريات الحالية للتغير الاجتماعى . مثل هذا التوفيق قد ينتج عنه ازدهار متزايد لكلا الجانبين .

* * *

الخلاصة

المعيار هو النمط الغالب للسلوك الظاهرى الذى يصطنعه أفراد تنظيم اجتماعى معين . والأنماط المثالية هى مدركات ذهنية أساسها ملاحظة الواقع .

وثمة نمطان مثاليان للمعايير يطلق عليهما النمط المثالى التقليدى والنمط المثالى العصرى . والتنظيم الاجتماعى ذو الأنماط العصرية إنما هو أكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية ، وأكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، وأكثر دراية بأصول القراءة والكتابة ، وأكثر خضوعاً لحكم العقل ، وأكثر ثقة بالنفس من غيره من التنظيمات ذات الأنماط الأخرى . والبعد الخاص بالتزام القديم أو الاتجاه نحو الحديث تم قياسه على المستوى الفردى كما قيس لخدمة التنظيم الاجتماعى . ومن نتائج القياس على المستوى الفردى اكتشافنا بأن قابلية الأفراد لاعتناق الأفكار الجديدة تتأثر بالدوافع العصرية وليس بالدوافع التقليدية القديمة . لقد استخدم الباحثون ثلاثة أنماط من المقاييس لقياس المعايير الخاصة بالتزام القديم أو الاتجاه نحو الحديث هى :

١ — المستوى العام لميل أفراد التنظيم الاجتماعى إلى اعتناق الأفكار الجديدة .

٢ — شعور أفراد التنظيم الاجتماعى تجاه المعتنقين للأفكار الجديدة .

٣ — رأى القضاة الخبيرين فى المعايير وترتيبهم لها وفقاً لأهميتها .
والمعايير السائدة فى البيئة يبدو أنها تفسر التغيرات فى قدرة الأفراد على اعتناق الأفكار الجديدة ، تلك التغيرات التى لا تفسرها المتغيرات الأخرى ، مثل الصفات الاجتماعية . وقدرة الفرد على اعتناق الأفكار الجديدة تتغير مباشرة وفقاً للمعيار السائد فى تنظيمه الاجتماعى والذى يقيس قدرة أفراد هذا التنظيم على اعتناق الأفكار الجديدة .